

الحالة العلمية والحركة الفكرية في النجف

Le mouvement intellectuel à Nejed, centre chite célèbre.

وجدنا مقالا للشيخ الشرق في الجزء الممتاز من جريدة النجف ثم وجدنا له تكملة في مكان آخر بقلم الشيخ نفسه فاجبتنا ان نجتمع بين الامرين ، فالكلام كله اذن للشيخ الشرق وليس لنا فيه كلمة واحدة .
ل. ع.

توطئة

قبل سبعة اهلة نشرت في العدد الممتاز لجريدة النجف ، مقالا تحت عنوان « الحركة الفكرية في النجف » صادف استحسنانا في نفوس العلماء هنا وهناك وقد رغب الي بعض العلماء في تكميل ذلك المقال من بعض جهاته ونشره مع التكملة وما انلذا ممثل ومجيب .

لا تمتاز النجف بأسلوب فكري خاص ، وانما اسلوبها هو الاسلوب الفكري القديم المائل بتمامه في هذه الزاوية وليس فيها هيكل خاص بالحركة الفكرية وكلما هناك خبيرة من جنوب كثيرة ابتتها مزارع مختلفة فالحركة الفكرية هنا نتيجة لالة واهم تلك الحبوب المكان والزمان .

١ - المكان

على طف الحمادين سواد الفرات وصحاح الجزيرة مما يلي ظهر الكوفة ابراج سور وضعت العنسية وضمة اسد رابض يطوق مدينة راكبة على متن الوادي ممتدة بانف البرية وجمال العضاب يناوحها العبوب الناشف وحواليها الربوات البيض ومساحب السيل تطل من جهتي الشمال والشرق على تخيم واسع فيه القباب والبيوت والمساطب والفرف وحفائر منبوشة ودكك واكوام مبنوثة تلك جبانة النجف او وادي السلام الذي ترفرف في سمائه اجيال من ارواح البشر واجيال ، وتطل من جهتي الغرب والجنوب على واد افيع ربما دلت آثاره الجيولوجية على بحر او بحيرة في التاريخ البعيد .

سما صليقة وجو قتي وشمس تنوهج على شمسين شمس السماء وشمس

النهب تلك القبة الأبريزية الموقرة التي ترى في الرواق العلوي. فالنجف هي خورنق اليوم وقريب منها خورنق الالمس

النجف المعري الذي تكتشفه اودية منورة الافاح كان متزها للساسانيين والماندرة والعباسيين وكان حولها للنصارى نصارى الحيرة بيع واديرة في الزمن الغابر مبثوثة في بلاد العيون التي حول النجف وتسمى اليوم « بلاد القصور » بل حتى في النجف نفسها يذكر وجود دير وفي ذلك اكبر دلالة على جمال الموقع فاعتدال الجو وصفاته ورملة الارض ونقاها وبهاء الشمس ، اذ له الاثر البالغ في تكوين الروح النجفي ونشأته النفسية ، وفي العلم وآرائه وخواطره .

٢ - الزمان

للشنة مدن علمية تعاقبت في الظهور حسب الاحوال الاجتماعية والسياسية التي تنقلت بهذه الطائفة من مركز الى مركز ، فكانت (قم) ثم (الحلة السيفية) ثم (شيراز) ثم (اصفهان) ثم (كربلاء) ثم (النجف) كما انه ربما كانت (جبع) وغيرها من بلاد جبل عامل من المراكز العلمية لهذه الطائفة . كل هذه المدن اخنت سلطتها الزمنية والدنية وصارت محطة علمية توزع تلاميذها على سائر اقطار الشيعة ويهاجر اليها رواد العلم وطلاب الادب من اقصى البلاد وفي كل مدينة من هذه المدن اثار علمية كثيرة ف (قم) الى اليوم تعرف عندهم بدار المؤمنين وفيها الى الآن زوايا ومدارس وخوانق قديمة وحديثة .

وفي (شيراز) الى الاف محلة كبيرة تعرف بمحلة العلماء والحكمة والعرفان الشيرازي معروف عند هذه الطائفة .

وفي اصفهان وبلاد عامل المدارس التاريخية والمجلات العلمية . وكل تاريخ الحلة تاريخ ادب وعلم .

واكثر الكتب الحية والتأليف المنتجة التي في ايدينا وفي دور كتبها هي : للقمي او للحلي او للشيرازي او للعالمي او للاصفهاني او للحائري او للنجفي الغروي .

وقد انتقل النتاج الفكري من كل هذه المدن الى النجف .
 وفي النجف آثار علمية من القرن السادس للهجرة ولكنها في ذلك العهد
 كانت كنزاً زوياً لا كمدنية علم ، وفي القرن التاسع والعاشر كانت فيها طائفتان
 علمية كبيرة تتردد بين (النجف) وبين (الرماحية) وهي اليوم بلد دارس من
 مدن الفرات الأوسط بين النجف والساوة وفي القرن الحادي عشر كان العلم
 يتردد بين النجف وبين كربلاء ومن القرن الثاني عشر ابتدأت المركزية العلمية
 في النجف واصبحت هذه المدينة جامعة علمية ضمنها كليات عديدة لكنها بصورة
 غير منظمة فهي مبثوثة ومبعثرة ، فيها: كلية للآداب وكلية للغة وكلية للرياضيات
 والفلسفة وعلم الكلام وعلم الأخلاق وعلم الحديث وعلم الفقه ، ولكن الصبغة
 العامة فيها والرواق الجلي فيها هما للعلوم الدينية ، والنجف زاوية دينية قبل
 كل شيء ، فهي في العراق كالآزهر في مصر لأن الأزهر أثرت فيه الحضارة
 المصرية والحركة الفكرية فيصورته وهدبته وربتته .

والنجف لم يجد من نفسية قطرة ما يؤثر فيه فهو ما زال مؤثراً غير متأثر
 والروح العلمي الذي تشأ في الأزهر روح عربي ، أما في النجف فالروح العلمي
 روح فارسي لأن الشيعة في تاريخها وشعائرها وسيرتها العلمية والأدبية فارسية
 أكثر منها عربية ، وقد هاجر إليها وما زال يهاجر إليها طوائف وجماعات من
 سائر البلاد الفارسية هاجروا إليها بالآداب والمادة ، هاجروا إليها بجسمهم وعقولهم
 هاجروا إليها بأذواقهم وأميلاتهم فأثروا في مختلف الطبقات وأوجدوا حركة
 فكرية فارسية ولكنها متعمصة ثوباً عربياً رثاً .

وقد نفعت النجف هذه الهجرة الفارسية واضرتها معاً ، أما وجهة الضرر
 فقد كانت الحركة الأدبية والسيرة العلمي قبل الهجرة أصبح مجاهداً عليه اليوم وامتد
 فقد كانت كتب النواصة وطريقة التدريس وأقلام التأليف وأسلوب التحرير
 والتقرير كلها عربية صحيحة ولكن للآداب العربي العالي رونق ومكانة ، ولكن
 بعد الهجرة فسدت اللغة وسقم التحرير والتقرير وضعف التأليف والأسلوب
 العربي فأصبحت السيرة العلمية سيرة فارسية صرفة ليس فيها غير طائفة جفككة
 من الألفاظ العربية تلوها الآلسن الفارسية بهجة ولكنة . على أن فيها من

الدقائق والروابط والاماليب الفارسية ما يفرجها عن اللغة العامية فضلا عن القصص . وقد اهتمت كثير من الاعضاء العلمية حتى غمضت وصارت اعضاء اثرية

فبالغة والحديث والتفسير والتاريخ والادب والفلسفة انسد باب الاشتغال فيها في النجف فضلا عن باب الاجتهاد والفقه العربي مسخ اسلوبه وانقلب انقلابا كبيرا .

اما النجف فمن جهات عديدة فلقد انعمت النجف تلك المهلجرة بامور كثيرة مادية واجتماعية واوجدت لها مكانة تاريخية ، لقد لطف النوق الفارسي واثر تلك العقول في نفسية البلاد فالنهضة الحديثة في النجف بما فيها من جهاد او عناد سياسي وتجديد ادبي وتحرك اصلاحي كلها من نافع فارسي واذا كل للاحتكاك اثر ادبي فان الاختلاط الفارسي بالنجف والنجفيين اوجد اشياء كثيرة منها هذا الحركة الفكرية الجديدة التي تتمخض في النجف منذ ١٩ عاما اي منذ تاريخ الانقلاب السياسي الايراني والعثماني .

والادب النجفي — وخصوصا الشعر — فيه خبيرة من الادب الفارسي ولكن كانت الجالية الفارسية والمهاجرة بالامس انفع للحركة الفكرية في النجف اليوم لامرئين :

اولا — لان التجدد في بلاد فارس والحركات السياسية والاجتماعية في ايران جذبت المفكرين والمتوردين من الجالية الايرانية التي فضلت الاقلية في بلادها والعمل لها على المهاجرة واصبح لا يهبط النجف من الطبقة الراقية احد وكل من يغشى النجف فهو من النعماء وطبقة السواد من ابناء الاكثرة والنساء القرويين .

ثانيا — ان النجف اضطربت في مبادئها ونزعاتها السياسية وسائرته السياسية البغدادية زمن القلاقل والزعارع ، فلما ارادت سياسة بغداد ان ترسخ وتستقر وتشغل في بنيان حكومة دائمة اختلفت مع النجف في بعض تعاريج السياسة وملتوياتها فقضت بغداد باعتزال النجف عن السياسة فاعتزلت النجف وقبعت في زاويتها . فالتجف في عزلتها اليوم فقدت عضوا كبيرا من اعضاء الحركة الفكرية .

٣- المدرسة النجفية

ان مبدأ المدرسة العربية الإسلامية ونفرتها الأولى هي تلك الحلقة المقدسة التي كانت تجتمع في مسجد النبي (صلم) فتتطرح بالحديث والسنة والادارة والتاريخ والادب ، ثم توسعت تلك الحلقات والاجتماعات فكانت في مسجد الكوفة ومسجد البصرة وصارت المساجد مركزا للمركزة الفكرية فبالساجد في غير اوقات العبادة مدارس . وهذه الطريقة القديمة محفوظة في النجف اليوم ، فالجامع العتيق ومشهد علي (ع) المعروف عندنا بالصحن - وغيرهما في اوقات العبادة تجد الطلاب هناك حلقاتا ماثوئين وبعض الاساتذة على المنابر وكلهم يتطرحون في المباحث العلمية والادبية .

ومشهد علي (ع) - الصحن - اول انشائه كان بصفة مدرسة حول الرواق العلوي كما ذكره الرحالة ابن بطوطة في سنة ٧٢٦ هـ وذلك على عهد عمارته الاولى العمارة البوذية وهكذا هو في عمارته الحالية وهي العمارة الصفوية التي خططت في غرة القرن الحادي عشر فانه بشكل مدرسة تدور عليها خلوات واوانات في الطبقة السفلى ومنها في الطبقة العليا وامامها بهو (قاعة) للتدريس والاجتماع وهكذا كانت الخلوات مشحونة بالطلاب الغريباء ورواد العلم وما زالت بعض الخلوات او الحبر تعرف باسماء العلماء الذين كانوا يقطنونها مثل حجرة الارديليل في الطبقة العليا فوق الباب المعروف بلب القبلية . وقد كانت خزائن كبيرة للمدرسة العلوية اي «الصحن» قيل انها كانت تشتمل على ٤٠٠ الف كتاب واخير ابدال الحمال وصارت الخلوات التي في الطبقة السفلى مقابر للاموات التي ترصد التقرب من مرقد الامام (ع) وبقيت الخلوات التي في الطبقة العليا فارغة موحشة وماهي إلا عشا للفتاش والطيور الحمام المعروف بحمام الحضرة .

بادت تلك الحضرة ولم يبق منها غير مئات من نسخ القرآن المجيد وكتب الادوية وشيء من الكتب البعثرة مكسدة في بيت صغير في الصحن من جهة القبلة . وقصد ذكر ابن بطوطة ان مشهد علي (ع) محفوف بالمدارس والزوايا والخوانق ومن القرن الثاني عشر كثر تشييد البنايات والاروقة حول المشهد

المقدس لسكنى الغرياء من طلاب العلم وربما كان فيها بعض التخصيص فيقولون هذه مدرسة الهند ، وهذه مدرسة الترك ، وهذه مدرسة القزوينيين ، وهلم جرا ؛ وما هذه بمدارس لانه ليس فيها مناهج ولا اساتذة ولا صفوف ، وقد تعرف باسم استاذ كبير مثل مدرسة الملا كاظم ومدرسة السيد كاظم وقصدهم من هذه النسبة انه شيدها وماهي إلا منازل للسكنى فقط .

والمدارس الحقيقية هي الجوامع والمسجد الصحن . وفي النجف ٥٣ مدرسة بين قديمة وحديثة ، اعتقها المدرسة المروفة بمدرسة الصحن ويظهر انها اقدم مدرسة في النجف وهي بناية قديمة بجانب الصحن من الجهة الشمالية وبابها مشروع من احد ابوانات الصحن وطرز هندسة عمارتها مغاير للعمارة الصفوية المألوفة في الصحن والرواق ويظهر ان عمارة المدرسة اقدم واقدم وهي اليوم فارغة ومتداعية ويعرف النجفيون بعض مدارس قديمة جدا درست ونهضت بمكانها دور للسكنى مثل دار في محلة المشرق تعرف بدار الملا شاكرو ومثل عمارة في محلة العمارة تعرف بدار الاغلاخانية وكثير غيرها .

وقد كانت المدرسة العربية الاولى بمثابة عنوان للاذب الناشئ والنور الشائع في نفوس الامة بأسرها لا يخص طائفة دون اختها فمثل بيت الحكمة في بغداد كان بيت الامة بأسرها وهكذا كانت المدرسة التنظيمية والمستصيرية وسائر مدارس بغداد والانجلس في دورها الاول ثم افرقت الامة فتأسست مدرستان مدرسة للاشاعرة ومدرسة للمعتزلة من جهة ومن جهة اخرى مدرسة للظاهرية ومدرسة للباطنية كالنصوف بطرقها وكلها وبحلقاتها ومناحية وزاد الاقتراق فتأسست مدرسة للسنة في بغداد ومصر ودمشق ومدرسة للشيعة في قم وفي الحلة وشيراز واصفهان وبلاد عامل ثم زاد الاقتراق فوق ذلك كله فتأسست مدارس لفرق السنة ومدارس لفرق الشيعة فكان في القرن الثاني عشر للهجرة مدرستان للشيعة في كربلاء تتراحان : مدرسة الاخبارية ومدرسة الاصولية وكان الرجحان للمدرسة الاخبارية حتى بعث الله ذلك المجدد الكبير والمصلح الشهير العلامة المعروف بالاعا البهبهاني .

نبغ ذلك المبقر في بهبهان احدي مدن الخليج الفارسي وبعد ان برز فيها

هاجر الى كربلاء فنفع من روحه الطاهر في مدرسة الاصولية فزاحت المدرسة الاخبارية بل اخرجتها فأخرجتها من كربلاء والنجف وعلى يد ذلك العلامة تأسست المدرسة الاصولية الكبرى او دار المعلمين في النجف وصارت تلك المدينة مدرسة عالية لتلك الطائفة فالنجف اليوم هي مدرسة الاغا البهبائي وكل من نبغ فيها او ينفع من العلماء فهم تلاميذ الاغا البهبائي .

٤ - طريقة التدريس في مدارسها

وطريقة التدريس في النجف قديمة تتردد بين الطريقتين اليونانيتين القديمتين وهي طريقة التحليل بان يتناول الأستاذ الموضوع ويجزئها الى اقسام ثم يتناول كل قسم ويحلله الى اجزاء وهكذا يقسم ويحلل ويجزئ حتى يصل الى ادق تلك الاقسام وحينئذ يتاولها ويبحث في الاسباب والعلاقات والمعاني والالفاظ . وطريقة التفسير والشرح هي ان يضع الباحث اولاً فرض القضية فيدرسها ويأخذ بتفسيرها من جميع الوجوه الممكنة وفي الاخير يختار الوجه الذي يستتبعه والتفسير الذي يختاره .

ويقلب على الاسلوب العلمي في التحرير والتقرير اسلوب محاورات سقراط المعروفة وهي الطريقة المعروفة بطريقة السؤال والجواب او طريقة : « فان قلت كذا قلت كذا » وهي عبارة عن محاورات يفرضها الأستاذ بينه وبين طرف مفروض ، يبدأ الأستاذ بطرح بعض الاسئلة ثم يذكر الجواب الذي يتوقعه من ذلك الطرف المفروض ثم يتدرج اليه بالاسئلة حتى يصل به الى الاستجابات عن الحقيقة التي يحققها ذلك الأستاذ .

والدراسة في النجف على نوعين « سطوح » و « خارج »
اما طريقة السطوح فهي ان يتكلم الأستاذ والتلميذ على سطح كتاب مفتوح بينهما ويتعاطيان جملة منه خاصة .

واما دراسة « الخارج » فهي ان يذكر الأستاذ عنوان المسئلة التي يريد ان يبحث فيها ويقرر من ظهر قلبه عدة آراء واقوال حولها ثم يختار ما يرتبه والتلاميذ يلتفون حول منبره كالستمعين لخطابيه او لمخاضته وهم مثل الأستاذ يستظهرون تلك المسئلة وما فيها من آراء واقوال وينتظرون ما يرتبه الأستاذ فيقرؤنها عليه او يناقشونها فيه .

وكتب الدراسة قديمة مثل كتاب « قطر الندى » لابن هشام وشرح منظومة ابن مالك ومغني اللبيب لابن هشام في النحو .
ومثل كتاب النظام والمكودي للعرف .
ومثل حاشية الملا عبدالله الشارحة لمتن التفتازاني في المنطق .
ومثل شرح المطول او المختصر لسعد الدين في المعاني والبيان .
ومثل كفاية العلامة الخراساني ، ورسائل الشيخ الاكبر الانصاري في الاصول .
ومثل شرح اللمعة للشهد العاملي طاب ثراه ، والمكاسب للشيخ الانصاري قلنس سرا في الفقه .

ومثل رجال ابي علي في الرجال .
ومثل كتاب الوسائل وكتاب البحار في الحديث والاخبار .
ومثل تاموس الفيروزابادي وصحاح الجوهرى في اللغة .
وخلاصة الحساب للشيخ البهائي العاملي في الحساب .
ومثل اشكال اقليدس في الهندسة .
وكتاب الجسطي في الهيئة .

٥ - مسك الحتام

اتراني قد المستك طرفا من الحركة الفكرية في النجف بما حللتها للثمن تأثيرات المكان والزمان والحالة الاجتماعية ؟ واذا عرفت ان النجف زاوية قديمة تعرف ان الجمود فيها اكثر من الحركة لان الدين بتقاليد وشعائره قديم مصمت لا يقبل التجدد وكن الاثق بالنجف ان تحدث فيه النهضة الادبية قبل النهضة السياسية . ولكنها نهضت سياسيا ولم تنهض ادبيا لان النهضة الادبية توجد حركة فكرية ونموا في الاخلاق والمقول وتلطف وتجدد كثيرا من المبادئ التي يود بعضهم ان تبقى على غبارها ولا تنزعج بركة القديم فيها .

وقد لطف القرن العشرون شيئا كثيرا وانتقلت عدواه الى نواحي طائفة من المتجددة فتمردت ارواحهم على التقاليد وتماطلوا وجوه الاصلاح فهدموا شيئا

من البيان القديم ووضعوا في البناء الجديد اجبارا ولكنهم ممتنعون بحالة اجتماعية ثقيلة اذ الشعب مزور ومخاز عنهم فلا يجدون نوعا من التشيط ولا طرقا من الاقبال على بضاعتهم فهم يتقنون بادمغتهم وينتمشون بارواحهم وتكاد تكون حياتهم في عزلة وانقطاع والاديب النجفي يعيش في فلك وحده ؛ يضيق البلد بالشاعر النجفي الذي طالما اطربك بعودة فينبض في زاوية ينقطع الي منعطفات الوادي بين الدكدك وحول التلال ؛ الشاعر النجفي اليوم مثل المفكرين القدماء في بلاد العرب القاحلة يتلقى الوحي في العزلة اكثر مما يتلقاه في الاجتماع ؛ يختلف الشاعر النجفي الى مفارقة في الوادي او جبل او ربوة اكثر مما يختلف الى محفل او ندوة ؛ الشاعر النجفي مدفوع ومضطر الى التشرذ وعودة ان يفسد في المجموع ويتوسط الناس لتحول اليه الوجوه ؛ لان الشاعر الحقيقي اليوم هو الشاعر الاجتماعي وليس في النجف الا اشباح للجديد وتلك الاشباح خائرة مرتعشة في مشيتها لا تتمكن من ان تنهض او تنمش .

اليوم في النجف اربع مدارس الجديد ابتدائية ومدرسة ثانوية ، وفيها اليوم مطبعتان سقيمتان وفيها سوق للكتب تجلبها من مطابع ايران والعهد ولا تكاد تجلب لها شيئا من المطابع العربية .
علي الشرقي

سقاية كنج عثمان

كان في قرب دار الامارة المعروفة بالسراي سقاية على اسم كنج عثمان ؛ وفي سنة ١٩١٥ م امر الاتراك بهدمها لتوسيع الطريق لتصلح ان تكون جادة ؛ وابقوا منها قبورا وحوطولا بدار ولما احتل الانكليز بغداد وطأوا ذلك الطريق فازالوا القبر المذكور وسووه مع القارعة وذلك في شهر ايلول من سنة ١٩١٧ م
اما من كان كنج عثمان فراجعته في لغة العرب ٣ : ٤٠٨ - ٤١٤